المحاضرة الحادية عشر

أشهر أعلام نظرية المعرفة (الغزالي وابن رشد)

♠ الغزالي

رحلة الغزالي للبحث عن الحقيقة
أقسام المعرفة
أصناف العلم وأقسامه
وسائل المعرفة

♠ ابن رشد

فلسفة ابن رشد ونظريته
مفهوم العلم وأقسام العلوم

♠ رحلة الغزالي للبحث عن الحقيقة

- نظرية المعرفة عند الغزالي مرتبطة أشد الارتباط برحلته في البحث عن الحقيقة، وقد قدم حديثا صريحا في نظرية المعرفة في العديد من مؤلفاته كالمنقذ من الضلال، وميزان العلم، كما خصها ببعض المؤلفات المستقلة كالقسطاس المستقيم، والذي تناول فيه ميزان المعرفة، والرد على نظرية المعرفة عند الباطنية، وقد حاول الغزالي في قسطاسه استخراج ميزان المعرفة من القرآن الكريم، حيث استطاع أن يستخرج منه خمسة موازين: ميزان التعادل (الأكبر، والأوسط والأصغر)، وميزان التلازم، وميزان التعاند،
- ثم أخذ فى شرح هذه الموازين بالتفصيل، فقد حاول فيه الغزالي استخراج أشكال القياس العقلي من القرآن الكريم مباشرة، كما حاول أن يستخرج أيضا أمثلة لهذه الأقيسة من القرآن، وكان قادرا على ذلك بمهارة، ليبين أن استخدام هذه الأنيسة الصورية أمر مشروع ومندوب إليه فى طلب المعرفة الحقة، ثم أخذ ينقض نظرية المعرفة عند الباطنية القائمة على القول بالإمام المعصوم.
- وقد كان الغزالي يحاول البحث عن الحقيقة بكل المدارك والمعارف الحسية والعقلية والقلبية، وكي يصل إلى الحقيقة اليقينية كان لا بد من أن يستخدم منهج الشك، أو الشك المنهجي.
- وإنما تقوم نظرية المعرفة عند الغزالي على نقد وسائل العلم والمعرفة التقليدية، وتعدد مستويات الخطاب المعرفي عنده، والشك المنهجي، كما نادى بضرورة التلازم بين العقل والشرع من أجل الوصول إلى اليقين، على أن الغزالي لم يتزحزح قيد أنملة عن تأكيد أهمية المعرفة العقلية رغم ما قدمه من نقد وشك، فالعلوم كلها وخاصة الدينية إنما تدرك بكمال العقل وصفائه، ولهذا وثق بالمنطق والبراهين العقلية فى الكثير من المجالات بعد أن نقدها نقديا علميا دقيقا.
- ويعتبر الغزالي أحد الشخصيات الأساسية التي دافعت عن المنطق فى العالم الإسلامي وقدمت له أسباب بقائه واستمراره، وخصص بعض كتبه للمنطق مثل (معيار العلم) و (محك النظر)، كما تناول بعض قضايا المنطق فى مواضع أخرى كمقدمة المستصفى الشهيرة وكمقاصد الفلاسفة وتهافتهم.

♠ أقسام المعرفة

وبناء عليه فتنقسم المعرفة عنده إلى ثلاث شعب:
١- المعرفة الغيبية الميتافيزيقية ومعرفتها بطريق التفصيل لا تتم إلا عن طريق الوحي.
٢- المعرفة المنطقية والرياضية، وطريقها العقل.
٣- المعرفة التجريبية وطريقها الحواس، وغايتها الظن لا اليقين، ويوضح الغزالى ذلك بقوله: ((وأبعد العلوم الثلاثة عن التشويش الرياضى، وأما الطبيعى فالتشويش فيه أكثر لأن الطبيعيات بصدد التغيرات، فهى بعيدة عن الثبات بخلاف الرياضيات)).
- يتناول الغزالي في كتاب (ميزان العمل) شرفَ العقل والعلم والتعليم. ثم يقدم الكلام عن العلم في كتابه الأشهر (الإحياء) ويجعل له صدارة الكتاب ويقدمه على كتاب قواعد العقائد. وأعطى أولوية كبرى للعلم وما يتعلق به من مباحث ومفاهيم وقدمها على الكل مطلقا.

أصناف العلم وأقسامه:

يصنِّف أبو حامد الغزالي العلم ويقسمه إلى قسمين: فيقول: (اعلم أنَّ العلم على قسمين: أحدهما شرعي، والآخر عقلي. وأكثر العلوم الشرعية عقلية عند عالمها، وأكثر العلوم العقلية شرعية عند عارفها).

وبعد تقسيمه العلم إلى شرعي وعقلي؛ أخذ في تفصيل أقسامهما، فبدأ بالشرعي وقسَّمه إلى قسمين: الأول: في الأصول، وهو علم التوحيد. والآخر: علم الفروع.
والعلم الشرعي إما أنْ يكون علميًّاً أو عملياً. علم الأصول هو العلمي، علم الفروع هو العملي. والعلم العملي يشتمل على ثلاثة حقوق:
الأول: حق الله تعالى "أركان العبادات".
والثاني: حق العباد "أبواب العادات" مثل: البيع، والشركة، والقصاص.
والثالث: حق النفس "علم الأخلاق"
وبعد أنْ فرغ أبو حامد الغزالي من أقسام العلم الشرعي تناول بالتقسيم مراتب العلم العقلي، حيث قسمه إلى ثلاث مراتب: المرتبة الأولى: العلم الرياضي.المرتبة الثانية: العلم الطبيعي. المرتبة الثالثة: النظر في الوجود وتقسيمه إلى الواجب والممكن
- هذا الترتيب المتسق للعلم الشرعي والعقلي ينبئ عن عقلية فذة، وبعد فكرى عميق، وإحاطة واسعة بالعلوم والمعارف الفنية، أسهمت في بروز منهجية أصبحت مورداً خصباً لمناهج البحث الحديث.
-وبعد حديثه عن العلم غاص في رحلة البحث عن اليقين، مطبقا منهجه (الشك المنهجي) وانتقل من الحسيات إلى العقليات إلى الكشف وصولا على اليقين. فكان شكه منهجيا لا مذهبيا.
-وقد ترتب على هذا الشك المنهجي عند الغزالي وضوح الاتجاه النقدي عنده، من حيث نقده لوسائل المعرفة، ونقده للمذاهب والطوائف والأفكار والفرق، وسيؤثر الاتجاه النقدي عند الغزالي تأثيرا مباشرا على مناهج التصنيف عنده، مما يجعله يضع كتبا بأسرها من خلال اتجاهه النقدي كأعماله في نقد الفلاسفة والباطنية وغير ذلك.

♠ وسائل المعرفة:

وبما أنه لا يمكن الفصل التام بين العلم والمعرفة عند أبى حامد الغزالي؛ لأنَّ المعرفة لا تكتمل إلاَّ بالعلم، فالعلم المبني على التوحيد الخالص لوجه الله تعالى والذي يتبعه العمل تكون نتيجته المعرفة. لذلك عندما تحدث عن وسائل العلم والمعرفة ذكرها بقوله: "طرق تحصيل العلوم".
وقد اصطلح عليها بـ "وسائل المعرفة"، يقول الغزالي: "اعلم أنَّ العلم الإنساني يحصل من طريقين: أحدهما: التعلُّم الإنساني. والثاني: التعلُّم الرباني.
فالعلم الإنساني يحصل عنده من طريقين: [١] التعلُّم الإنساني.[٢] التعلُّم الرباني. ثم يفصِّل ذلك، فيبدأ بالتعلُّم الإنساني ويقسِّمه إلى:
[أ] التعلُّم من خارج: وهو التحصيل بالتعلُّم، كأخذ العلم شفاهة أو كتابة عن معلم.
[ب] التعلُّم من داخل: وهو الاشتغال بالتفكُّر، وهذا التفكُّر مستفاد من النفس الكلي، وهو عنده أقوى تعليماً وأشد تأثيراً.
وبعد أنْ فرغ من شرح طريق التعلُّم الإنساني في تسلسل منطقي، ذكر التعلُّم الرباني، حيث قال: "الطريق الثاني وهو التعلُّم الرباني وهو على وجهين:
الأول: إلقاء الوحي: وخص الله تعالى به الأنبياء والرسل، والعلم الحاصل من الوحي يسمى عنده علماً نبوياً.
الثاني: الإلهام والكشف: "الإلهام وهو الذي يحصل بغير طريق الاكتساب وحيلة الدليل ولا يدرى العبد كيف يحصل له، ومن أين يحصل ويختص به الأولياء والأصفياء، والعلم الحاصل منه يسمى علماً لدنياً. والملهم هو الذي انكشف له في باطن قلبه من جهة الداخل لا من جهة المحسوسات الخارجية".
ولكن ما هي شروط الإلهام والأوجه التي يحصل بها؟!
وهذا يكون بثلاثة أوجه: [أ] تحصيل جميع العلوم وأخذ الحظ الأوفر من أكثرها.
[ب] الرياضة الصادقة والمراقبة الصحيحة. [ج] التفكُّر.

♠ابن رشد

فلسفة ابن رشد ونظريته
- لم يكن ابن رشد شارحا للفلسفة فحسب، بل إنه كان فيلسوفا أيضا، بل يمكن القول بأنه كان واحدا من أكبر الفلاسفة الذين تمثلت فى فكرهم وإنتاجهم خصائص التفكير الفلسفى.
- وإن نظرية المعرفة كما قدمها ابن رشد تعتمد على أن النفس عقل فعال لا يحتوى فى جوهره على أى شيء بالقوة، فالعقل المادى إذن ليس إلا مظهرا من مظاهر النفس التى تتصل بالبدن، وليست نظريته فى المعرفة نظرية أفلاطونية محدثة بحال ما.
-وخلاصة نظرية المعرفة الرشدية تقوم على أن المعاني أو اسم الصور العقلية للأشياء لا تهبط من السماء، وإنما تصعد من الأرض – إن أجيز هذا التعبير – بمعنى أن المعرفة الإنسانية ترجع فى أصولها إلى الأمور الحسية.

- وهذه النظرية تتجلى واضحة في كل مصنَّفات ابن رشد، والتي تتجلى فيه النـزعة العقلية والواقعية، حتى في رصده ونقده للمناهج النظرية يبنى ذلك على مدى تأثيرها ونجاحها فى الواقع، ومن ثم فقد حكم مثلا على مناهج المتكلمين بالفشل لعدم مناسبتها فى الواقع للجمهور.
فمعرفة الله عند ابن رشد لا تكتسب إلا بالبحث النظري الذي يبدأ من المدركات الحسية ثم يرقى في مدارج المعرفة حتى يصل إلى أسمى مراتبها، وهى المعرفة الفلسفية، أى: تلك المعرفة النظرية التي تنحصر في معرفة الأشياء بأسبابها – كما يقول العلم الحديث – لا فى الاتحاد الصوفى المراد به الفناء فى الله سبحانه والاطلاع على أمور يعجز العقل عن إدراكها.

♠ مفهوم العلم وأقسام العلوم
إن القيام بتحديد مفهوم العلم عند ابن رشد يقتضي القيام بقراءة جديدة لما كتبه ابن رشد، تستدعي التطرق لكل العلوم التي اهتم بها ابن رشد في خطابه الفلسفي، وإعادة ترتيبها، والبحث عن أنواع العلاقة التي تربط بينها وكيف استغل، فيلسوف قرطبة، معطياتها في مختلف الحقول.
ولعل الأهمية التي خصصها ابن رشد للعلوم تتجلى من خلال وعيه بأهمية تصنيف العلوم وتحديدها وعدم الخلط بين موضوعاتها المختلفة؛ باعتبار أن الجنس النظري الموضوع لعلم ما يختلف عن الجنس المؤلف لعلم آخر؛ لكن هذا التمييز بين الموضوعات المكونة للعلوم المختلفة لا ُيخفي التداخلاتٍ ونقط الالتقاء بين كل العلوم، فالنتائج المحصلة في علم معين لا تعد حكرا عليه، بل يمكن توظيف بعض مبادئها في علوم أخرى.

♠ **تصنيف العلوم عند ابن رشد**
-يشير ابن رشد إلى أنه تكلم عن تصنيف العلوم في غير ما موضع، وهذا التصنيف الذي يحيل عليه مبنى على أن الصنائع والعلوم ثلاثة أصناف، وهى إما صنائع نظرية، وهى التى غايتها المعرفة فقط، وإما صنائع عملية وهى التى العلم فيها من أجل العمل، وإما صنائع معينة فى هذه ومسددة وهى الصنائع المنطقية.
-والصنائع النظرية صنفان: كلية وجزئية. فالكلية هي التي تنظر في الموجود بإطلاق، وفى اللواحق الذاتية له، وهذه ثلاثة أصناف: صناعة الجدل، وصناعة السفسطة، وهذه الصناعة (يعنى ما بعد الطبيعة). وأما الجزئية فهي التي تنظر في الموجود بحال ما. وقيل أيضا هنالك: إن الجزئية اثنتان فقط: العلم الطبيعي، وهو الذي ينظر في الموجود المتغير، وعلم التعاليم وهو الذي ينظر في الكمية مجردة عن الهيولى، وهذا كله مما وضع وضعا في كتاب البرهان)،
- ثم أخذ فى بيان وجه ذلك بطريق السبر والتقسيم.
ويقول فى مقدمة (الضرورى فى أصول الفقه) ممهدا لنقده لمنهج التصنيف الأصولي بناء على تصنيف العلوم الذى سيذكره: إن المعارف والعلوم ثلاثة أصناف:
١) إما معرفة غايتها الاعتقاد الحاصل عنها في النفس فقط، كالعلم بحدوث العالم، والقول بالجزء الذي لا يتجزأ وأشباه ذلك.
٢) وإما معرفة غايتها العمل، وهذه منها جزئية وكلية... فالجزئية كالعلم بأحكام الصلاة... والكلية كالعلم بالأصول التي تبنى عليها هذه الفروع من الكتاب والسنة والإجماع....
٣) وإما معرفة تعطى القوانين والأحوال التي بها يتسدد الذهن نحو الصواب في هاتين المعرفتين، كالعلم بالدلائل وأقسامها... وهذه فلنسمها مسبارا وقانونا

♠ منهج العلوم
ويعتبر ابن رشد أن كل العلوم -سواء أكانت نظرية أم عملية- تشترك في المنهج؛ وذلك لأنها كلها تعتمد على القياس وتبحث عن صرح نظري متماسك وصلب،
فهناك أهمية قصوى يشغلها علم المنطق في المتن الرشدي، فجميع العلوم تعتمد عليه كمنهج يتم من خلاله محاكمة الأقاويل وترتيبها حسب مرتبتها من التصديق إلى قول برهاني، وقول جدلي، وقول خطابي، وقول سفسطائي، وقول شعري حتى يأتي في الدرجة الأولى القول البرهاني كقول علمي وحيد. كذلك يتم في كل العلوم استخدام الطرق المنطقية من استنباط واستقراء وتركيب وقسمة وشرح ما يدل عليه الاسم...إلخ.
من الدلائل التي تبرز أهمية المنطق في المتن الرشدي، يمكن الإشارة إلى التفاضل بين العلوم وتميز بعضها عن بعض؛ فالعلوم النظرية أفضل من العلوم العملية، كما أن هناك تفاضل بين علوم أخرى فعلوم التعاليم أفضل من العلم الطبيعي. يتبين مِمَّا سبق أن هناك حضور للمنطق كمنهج علمي لتصنيف العلوم وترتيبه من جهة والحرص أيضا على تجريدها من كل أنواع الأقاويل الغير علمية، وهو المقصد الذي راود ابن رشد في الجوامع والتلاخيص والشروح.

♠ عقلانية ابن رشد:
-الغالب على ابن رشد طابع العقل والاعتداد به، والثقة فى أحكامه والاعتزاز بالمعارف التى يتوصل إليها واعتباره حجة وميزانا توزن به الآراء والأفكار، وقد أثمر هذا الطابع لديه موقفا نقديا من بعض الاتجاهات الفكرية والمذهبية التى ترتكز فى موقفها على التقليل من شأن العقل أو إلغاء دوره، أو عدم الالتزام بمعاييره الدقيقة،

- وقد ظهر آثار هذا الطابع فى جدله مع الحشوية والصوفية والمتكلمين والفلاسفة، وأتت عقلانيته متميزة عن العقلانية الممزوجة بالتصوف عند غيره من فلاسفة الإسلام فى المشرق أو المغرب، وكان لهذا الطابع مظهره الواضح على مصنَّفات ابن رشد.